العلاقات الاوروبية العربية فيما يتجاوز التبادل التجاري والأرضية المشتركة

هانس هيرمان جنوتكة *

1- أصبحت العلاقات مع العالمين الإسلامي والعربي في قمة الأولويات ليس بالنسبة للسياسة الخارجية الألمانية فحسب بل وبالنسبة للاتحاد الأوروبي ككل. وهذه العلاقات لا تتعلق بالمسائل الاقتصادية والثقافية فحسب بل تتركز أيضا في المسائل الأمنية.

2- استطاعت جمهورية ألمانيا ومعظم الدول الأوروبية الاحتفاظ بعلاقات وطيدة مع العالم الإسلامي، وكلا الطرفين استفاد كثيراً من هذه العلاقات. لقد سجلت مرة في التاريخ الحديث خلال فترة الحرب العالمية الأولى أن ألمانيا وحلفاءها استطاعوا حشد أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي تمكنت بسبب تقارُب التوجهات من تحديد أرضية مشتركة بين الإمبراطورية العثمانية والفدرالية الألمانية من ناحية والحلفاء والقومية العربية الناشئة في تلك الفترة من ناحية أخرى. ولكن في الفترة الماضية وعقب ذلك فإن المصالح العلمية والاقتصادية وعمليات تبادل التجار والعلماء والمستكشفين وعلماء الآثار كل ذلك أسهم بشكل كبير في ربط العالم الإسلامي مع القارة الأوروبية. كما أن الاستعمار قد كون وشتت في الوقت نفسه الشعور الودي كما طور العلاقات بطريقة سليمة في المرحلة نفسها. لا ريب أن هناك أرضية مشتركة لهذه العلاقات بين المسلمين والعالم الإسلامي ككل والقارة الأوروبية. إن ما أسعي إليه هو النظر إلى مدى شمولية هذه الأرضية المشتركة وكيفية الاحتفاظ بها وكذلك توسيعها أو بمعنى آخر كيفية حمايتها من الضياع والتآكل.

ولعلكم سوف تتساهلون معي إذا ما ركزت على التجربة الألمانية -التي أتحمل جزءاً من المسؤولية في نطاقها- إذا ما قلت إن بعض العواصم الأوروبية تتجه إلى نفس الأفكار وعندما أوضح خبرتنا في هذا المجال أقارن الأشباه، وأقوم ببعض المقايسات. إننا لا ندعي الإبداع ولا- الحصرية في الجهود لتكوين الأرضية المشتركة في العلاقات مع العالم العربي أو الأمة العربية بشكل عام.

ولنعد قليلاً إلى الوراء إلى الهجمات الإرهابية المفجعة التي وقعت في 11 سبتمبر. أعتقد أنه لا- أحد ينكر أنه منذ تلك الفترة جميع شعوب العالم في الغرب وفي العالم الإسلامي يشعرون بالتهديد المتزايد لا سيما من قبل أولئك الذين يضنون أنهم مختلفون عن الآخرين.

إن الجدل المحيط بنشر فرضية (HUNTINGTON) حول صراع الحضارات قبل خمس سنوات فقط من أحداث 11 سبتمبر يعطي إطاراً توضحياً وسوف يستمر في هذا

السياق مرات ومرات.

يدعي السياسي الأمريكي المخضرم من أصل عربي (جيمس زغبي) أن العلاقات العربية الأمريكية قد وصلت إلى أدنى مستوياتها بسبب الجو الحالي المتسبب من الخوف والإحباط والغضب وانعدام الثقة بين العرب والشعب الأمريكي صار بمثابة دوامة خطيرة تتسع يوما بعد يوم. وهذه الاتجاهات السلبية تؤثر، دون شك في العلاقات الأوروبية مع الجيران من الشعوب القاطنة في الجنوب الشرقي من القارة. وكما تعلمون فإنه وقعت اعتداءات أخرى في قلب بعض العواصم الأوروبية ضد أهداف مدنية بعد أحداث 11 سبتمبر مما أسفر عن قتل أبرياء. وقد بات من الواضح إن هذه الجرائم لطخت سمعة الإسلام وكل ما يتعلق بهذا الدين الحنيف حيث تم الإعلان بشكل واضح أن أفراداً ممن يسمون مجاهدين إسلاميين كانوا مسؤولين عن وقوع هذه الهجمات. وأحدث مثال على ذلك اضطرابات الشباب التي وقعت في فرنسا. يذكر أن أغلبية وسائل الإعلام الغربية قد حاولت إلقاء اللوم على الإسلام، ويُعتقد أن إحدى الصحف في فرنسا حاولت الكشف عن مجموعة تُعدُّ لعمليات تمردٍ واعتداء في باريس.

ومن جانب آخر من البحر الأبيض المتوسط فإن الاتجاهات المماثلة قد أصبحت من الأمور المعتادة والمتكررة، وكثير من المسلمين لاسيما الشباب منهم يعتقدون أن ردود الغرب على التهديدات الإرهابية تبدو غير ملائمة. ويُعتقد بأن الغرب بصفة عامة يتجاهل كثيراً في سياساته المسائل المتعلقة بالأسباب الحقيقية لوقوع هذه الأعمال الإرهابية مثل المعايير الازدواجية في مسائل حقوق الإنسان وكذلك الإهمال بشكل كامل للنزاع العربي الإسرائيلي. وهذا أمرٌ مؤسف. أما بالنسبة للعلاقات الخارجية فيبدو أنه لا يوجد هناك الكثير من التغييرات. ومن ناحية أخرى فلا تزال دول الخليج العربي قريبة من القوى الغربية في المصالح والعلاقات وأن المناقشات الطويلة المدى بين دول مجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي حول اتفاقيات التجارة الحرة تكسب قوة دافعة جديدة ولكن يبدو أن أي تقدم يتم إحرازه في العلاقات بين الدول الغربية والشرق الأوسط بحاجة إلى تبرير باعتباره تطور مهما إذا ما نظرنا إلى البيئة المشبعة بالمشاكل التي سببتها مفاهيم تهديد المشاعر والمصالح.

ومما لا ريب فيه أن ألمانيا عملت، باجتهاد كبير خلال السنوات الثلاث الماضية لتطوير الحوار النشط ليس مع العالم الإسلامي فحسب بل أيضا لتوسيع التعاون فيما بينهما لا سيما في مجالات التعليم العالي وكذلك تبادل الخبرات في المجالات الثقافية. ولكن في حقيقة الأمر فإنّ التقدم الذي تم إحرازه في هذا الخصوص بالرغم من ُمضي أربع سنوات منذ أحداث 11 سبتمبر يبدو ضئيلاً.

أصبح الحوار مع العالم الإسلامي موضوعاً بارزاً بين الاهتمامات الأوروبية والعربية. والكل مشتركون فيه ومن ضمن ذلك: المؤسسات الغير حكومية ومؤسسات الأمم المتحدة والجامعات والمؤسسات الدينية مثل الكنائس والأحزاب السياسية، وجميعهم يعتبرون

المشاركة في هذا الحوار أمراً أساسياً، ومن الملاحظ أن الحكومات تعين سفراء أو ممثلين بشكل كبير للمبادرة في هذه الحوارات. أما المتشائمون فإنهم يدعون أن هذه الحوارات قد أصبحت صناعة أو تجارة حيث يجتمع أصناف مختلفون من البشر في شتى مناطق العالم لتبادل مواقع الاجتماع المشترك ويدعون إلى تكرار الفاعليات نفسها مرة بعد مرة.

ومع ذلك هؤلاء المتشائمون ليس لهم جواب على أسس هذه المسارات ولا البديل عن فكرة هذه الحوارات. ومن خلال تجربتي الطويلة مع الدول العربية فإنني مقتنع بأننا نستطيع، عن طريق الحوار، العمل الكثير لسد الخلل المتزايد بين الغرب والعالم الإسلامي. لا بد لنا أن نبذل مزيداً من الجهود في العمليات التحليلية مع العالم الإسلامي وكذلك مع المجتمع الإسلامي وذلك من خلال كافة مؤسساتنا في الغرب الأوروبي. كذلك من الضروري جدا أن نعمل معا لإبطال المقولبات السلبية وتحديد أين تكون الأرضية المشتركة وكيف نوسعها. ولهذا السبب قمت أنا وفريقي، خلال السنوات الثلاثة الماضية، بتنظيم سلسلة من الاجتماعات وورش عمل وندوات تتركز على أوجه مختلفة وتوضح الأسباب الجوهرية لاندلاع الاضطرابات وكذلك الكره المتزايد والشكوك التي تشوه الجهود المبذولة لتشكيل هذه الشراكة. وبنفس الطريقة يُنظر إلى السياسة الأمريكية الحالية في العالم الإسلامي، ويؤسفني أن أقول ذلك من مثل الحديث عن الأطماع الغربية. وكثير من شعوب العالم الإسلامي تعتقد بأن ذلك هو الأساس المنطقي لاحتلال العراق وتورط الغرب في أفغانستان. وعندما يتم تعدٍ على الإسلام وكل ما يجري في العراق وأفغانستان يعتبر ضمن الهجوم العالمي ضد الأمة الإسلامية. إن الأخبار الفورية التي تبثها القنوات التلفزيونية غير المراقبة أفادت من حرية الإعلام والدرجة العالية من الوعي عند الشعوب الإسلامية في شتى أنحاء العالم. يتم الآن مناقشة كافة هذه المسائل على المستوى العالمي. ونحاول كذلك التركيز على الجيل القادم. إن انطباعي عندما أعمل وأعيش في العالم الإسلامي هو أن الشباب في هذه الدول لديهم الأحلام نفسها التي تتوافر لدى شباب الدول الغربية. فهؤلاء الشباب يرغبون في أن يعيشوا في جوٍ من الحرية والازدهار وخالياً من جو الاضطرابات والقمع. وبهذا فإنه من مصلحة الغالبية العظمى من شعوب العالم أن تسعى إلى الحوار والتفاهم في كافة فروع المجتمع. وإذا ما رغبنا في المساعدة في التغلب على بعض الإحباطات لاسيما لدى بعض الشباب والتي تتسبب في كثير من الأحيان في اضطرابات، ينبغي علينا مساعدة الدول في شتى أنحاء العالم في جهودها لمحاربة الفقر ورفع مستوى التعليم والمستويات الاجتماعية وتشجيع شعوبها للاشتراك بشكل كامل في الحياة الاجتماعية.

عند ممارسة سياسة الحوار مع العالم الإسلامي، فمن الأسلم تبّني فكرة القوة المرنة التي تبناها الأستاذ السابق في جامعة هارفرد ومساعد وزير الدفاع السابق (جوزيف ناي). إن القوة المرنة وفقا لما يراه هذا المفكر الأمريكي هي أفضل من حسن النية والعلاقات العامة الكلاسيكية. إذا ما استخدمت هذه القوة المرنة بشكل حكيم فقد تصبح أكثر فاعلية من القوة الصلبة والعقوبات الاقتصادية أو استخدام التهديدات العسكرية، وقد يبدو هذا الرأي قاسياً

بعض الشيء ولكن فكروا في القوة العسكرية السوفيتية الضخمة، ومع ذلك لم تستطع هذه القوة منع زوال الإمبراطورية السوفيتية.

وعندما انهارت هذه القوة، ليس تحت مذبحة القوة الإمبريالية ولكن تحت شعار (لا فرق بين دعاية وجاذبية الكوكاكولا والفيس بريسلي والديمقراطية وحقوق الإنسان التي تفجرت تحت أمواج شعوب دول حلف وارسو).

إن موارد القوة المرنة هي كالتالي:

1- الحضارة المادية في كافة أشكالها من كوكاكولا إلى مكدونالدز إلى إنتاج الأفلام ومن المسرحيات إلى الآداب والفنون.

2- القيم التي لا تتغير مثل العدل والديمقراطية وحماية الحياة وحق الحرية.

3- السياسة الخارجية المتلائمة مع تلك القيم التي تراعي مشاعر الآخرين والموجهة على المدى البعيد المنشقة في الشكل والجوهر.

إذاً ما الذي يتوقع أن يتم تحقيقه من هذه القوة المرنة؟

تقاس القوة المرنة في درجات جاذبيتها بين مجموعات الشعوب وهكذا تتكون الدول وهكذا يعمل الأفراد بنفس الطريقة. عندما يشعر الرجل أنه مفتونٌ بالمرأة والمرأة تشعر هي الأخرى بأنها مفتونة بذلك الرجل فإنه تكون هناك فرصة كبيرة بأن ينتهي ذلك الشعور بالزواج، وسوف يعمل الرجل جاهدا لتفادى أي شيء قد يؤذيها كما لو كان الأذى يعود لنفسه، إنّ مُا يرى هنا أنّ مجموعة محتملة من الناس قد يكونون جديرين بالملاحظة باعتبارهم وسائط اتصال وتثاقف آلية بين الدول إما بشكل ثنائي أو بجوانب متعددة أو بداخل الأقاليم.

إذاً ماذا تستطيع أوروبا تقديمه؟ الثقافة قد تبدو مفيدة حيث إنَّ القارة الأوروبية تبقى جذابة بالنسبة للعالم العربي الذي بات مقتنعاً أن انعدام التعليم والمعرفة هما العوائق الرئيسية لتحقيق مزيد من التقدم في هذا الإطار ولنتأمل معاً الحقائق التالية:

- الكتاب الفرنسيون هم أكثر من فازوا بجوائز نوبل للآداب بينما كتاب من بريطانيا وألمانيا وأسبانيا جاءوا في الترتيب الثالث والرابع والخامس على التوالي.

- مراكز علماء من بريطانيا وألمانيا وفرنسا بالنسبة إلى جوائز نوبل للعلوم هي الثانية والثالثة والرابعة على المستوى العالمي.

- إن مراكز الدول الأوروبية متساوية وهي الأعلى في العالم بالنسبة لمبيعات الكتب والموسيقى ومستويات الحياة والصحة وجاذبية الألعاب الرياضية وكرة القدم وكذلك الماركات العالمية بالنسبة للمنتجات الصناعية.

وبالتالي فأن استغناء الذاهبين العرب عن السفر إلى الدول الأوروبية لتلقى العلاج أو

للأسباب الترفيهية أو الحصول على العلم والبحوث العلمية يبدو بعيد الاحتمال.

إن الدول الأوروبية ترحب دون أدنى شك بشعوب دول الخليج العربي لاستثمار أموالهم الزائدة من المصادر النفطية في أسواق أسهم الدول الأوروبية وذلك لمستقبل أجيالهم القادمة.

من هنا سوف تلاحظون أن هناك توازناً في كلا الاتجاهين. السائحون الأوروبيون مثلاً يفضّلون بشكل متزايد قضاء إجازاتهم في الدول العربية وبذلك يستطيع أي عربي أو مسلم أو كلاهما أن يعتمد على الفضولية الأوروبية في نشر ثقافته. وعلى سبيل المثال: بعد أحداث 11 سبتمبر بوقت قصير أجريت في عدد من المدن الألمانية عملية المسح الشامل لمعرفة ماذا يربط ألمانيا بالإسلام؟ وقد أظهرت النتائج أنواعاً من الالتباسات المتوقعة، ولكن كان هناك استثناء وحيد، في إحدى المدن كانت الارتباطات الإيجابية مختلفة تماماً عن كافة نتائج المدن الأخرى والسبب في ذلك يرجع إلى إغلاق أبواب معرض الفن الإسلامي عقب الاجتماع مع بعض المواطنين العاديين الذين ما كانوا على استعداد لإعادة النظر في تفكيرهم الخطير عن الإسلام.

أذكر جيداً اعتراف الجمهور الأوروبي بمسؤولية دول الخليج العربي عن أزمة الإمدادات النفطية الأولي للأسواق الأوروبية والعالمية في أواسط السبعينات. وبعد ما أدركت هذه الدول أبعاد دورها الخاص في توازن العالم بالسوق النفطية، فان سياساتها الحكيمة قد ساعدت في تعديل الصورة، ومع ذلك هناك سلوكات مسؤولة مماثلة وقعت دون أن يلاحظها أحد. لنتكلم الآن عن المسائل السياسية ونحاول الرد على هذا السؤال: لماذا يجد العرب أن أوروبا منطقة جذابة؟: أولاً- السبب هو تحويل السوق الأوروبية المشتركة إلى الاتحاد الأوروبي هذه العملية تحمل الكثير من القوة المرنة التي نتكلم عنها. سوف تلاحظون أن الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية التركية هو الحصول على العضوية الكاملة في الاتحاد. كما تلاحظون أن الدول العربية الأعضاء في عملية برشلونة قد وقعوا على اتفاقية الشراكة وأن الاتصالات بين مجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي قد ازدادت في الفترة الأخيرة على الرغم من حدوث مفاوضات مطولة في بعض الأمور، وبعد طول الانتظار، سيتم قريبا التوقيع على اتفاقيات التجارة الحرة مع دول المجلس.

كذلك ينبغي تجاوز النزعة الطبيعية الأوروبية للتأخر في اتخاذ القرار في حالات الشك ومعالجة الأوضاع واعتراف مسؤولية الأمم المتحدة عن كافة المشاكل العالمية المعلقة، كل هذه الأمور تعرض نفسها باعتبارها قضايا ذات جوانب متعددة. وعلى الرغم من أن الإجراءات المؤلمة تكون في العادة أفضل ضمان للدول الصغيرة لجعل أصواتها مسموعة.

في هذا السياق فإنّ كلمةَ التحذير تكون في مكانها. يتم في بعض الأحيان تذكيري بنداءات كثيرة تدعو إلى أن تلعب الدول الأوروبية دوراً أكثر نشاطاً في الأزمة العربية

الإسرائيلية أو في مشكلة العراق كي تصبح أوروبا خليفة للإتحاد السوفيتي السابق في خلق توازن بالنسبة لنفوذ الولايات المتحدة. أعتقد بأنّ افتراض إن أوروبا تستطيع القيام بذلك الدور فهذا الأمر غير واقعي. في حقيقة الأمر كانت هناك آراء متشددة بشأن كيفية التعامل مع مشكلة العراق بين أوروبا الولايات المتحدة ومع ما وصفه وزير الدفاع الأمريكي السابق للقارة الأوروبية بأنها عجوز. ولكن لا أحد يرغب في تكرار هذه الحوادث التي تجرح شعور الاتحاد الأوروبي وشعور الولايات المتحدة. وكيف ما كان فإن التاريخ لا يرتاح بسهولة ولا يسمح بالتنفس بعمق. اليوم نشترك جميعا في السير معاً لتحقيق الأهداف التالية:

- إعادة بناء العراق وإعادة النظام والقانون فيه.
- منع انتشار أسلحة الدمار الشامل.
- محاربة الإرهاب.

إذا ما حققنا هذه الأهداف فسوف نحد من التهديدات الرئيسية للسلام في منطقة الخليج.

عندما نتكلم عن الولايات المتحدة فهناك أفكار كثيرة تدور في بالي. لا أعتقدٍ أنه توجد اليوم دولة مثل الولايات المتحدة، حيث يصف البعض هذا البلد باعتباره دولة مسيطرة جديدة ولكن مُحْسنة النظر للشراكة في تحمل الأعباء ودور القيادة. ولكي نكون شركاء فإنّ منطقتينا بحاجة إلى المزيد من الاندماج والدخول إلى مجالات التعاون الإقليمي وبهذه الطريقة فإن الجميع سوف يستفيدون وتصبح الولايات المتحدة أيضا الشريك القوي الذي يمكن الاعتماد عليه.

لذا أقترحُ أن يحافظ العرب والأوروبيون على وضعيتهم المشتركة وذلك عبر استخدام قوتهم المرنة ولكن ينبغي أن يكون هذا الاستخدام استخداماً مشترك وإلا فسوف يجري العمل من جانب واحد ويسبب ذلك زيادة في التشرذم. وإذا كان ذلك سوف يتحقق بجهود مشتركة فينبغي في نفس الوقت تكوين الأرضية المشتركة التي سوف نبني عليها هنا المشروع. وفي هذا السياق أعتقد أن تحذيراً أخر أصبح في مكانه.

إذا كانت الأساسات للأرضية المشتركة مفقودة فإن كل الحوار سوف يتحول إلى مونولوج أو حديث مع الذات. وعلى هذا الأساس يجب أن يكون هناك اعتراف متبادل باختلافاتنا أو بمعنى آخر اعتناق ثقافة التسامح. وكما قال وزير الخارجية الألمانية السابق (يوشكا فيشر) (ينبغي علينا أن نتحول من ثقافة المحاضرات إلى ثقافة التعلم من كل واحد منا) ولكن ذلك من الصعب تحقيقه ويحتاج إلى درجة أعلى من الصدق والأمانة. ولا ريب أن الإخلاص هو أفضل ضمان بأن لا تتحول القوة المرنة إلى مجرد دعاية.

وعلى الرغم من الصعوبات التي تواجهنا في محاولاتنا المستمرة لإطلاق الحوار والتعاون مع العالم الإسلامي، إلا أننا على يقين تام بأن التقدم في هذا الخصوص أمر

ممكن. إذا كان هدفنا العيش بسلام مع العالم الإسلامي ومع المجتمع الإسلامي في مجتمعاتنا الأوروبية، فإنه من الضروري التغلب على القوالب السلبية التي تتكاثر بشكل يومي في سائل الإعلام وترفع الإحساس لدى مواطنينا بعدم وجود خيار فعال للحوار والتعاون.

ينبغي علينا أن نناضل من أجل بناء الثقة، ويعني ذلك ضرورة الإصغاء لأفكار شركائنا، كما يجب علينا أخذ اهتماماتهم بصورة جدية وزيادة الاتصالات فيما بيننا في كافة المستويات. ومن الحيوي أيضا أن نعرض الأشياء بوضوح وفي العلن وتسمية المشاكل بمسمياتها الحقيقية. ومع ذلك لا نرغب في فرض مرئياتنا وفلسفتنا حول المسائل العالمية على الآخرين ولكن نرغب في أن نكون في وضع يسمح فيه طرح الأسئلة التالية:

- هل هناك بالفعل دعم كامل للإعلان العالمي الخاص بحقوق الإنسان؟

- هل نقبل أن تكون هناك حاجة إلى المشاركة المحتملة وبشكل أوسع في الشؤون العامة عن طريق العمليات الديمقراطية؟

- هل نستطيع فتح مناقشات علنية حول المسائل المتعلقة بالحكومات السيئة، والأخرى التحكُّمية والفاسدة، والفساد الإداري والقمع والانحراف عن العدل الاجتماعي والأداء الضعيف للاقتصاد والإخفاق في تنظيم المناهج والنظم التعليمية؟

إذا ما استطعنا معالجة هذه المسائل فإن النتيجة ستكون إيجابية وسوف نفتح الطريق الوحيد المعقول نحو التقدم في منطقتينا وكذلك إقناع أنفسنا أن المنطقتين العربية والأوروبية والثقافتين العربية والأوروبية، حكمت عليهما الجغرافية بأنه إمّا أن يتحقق التعاون المشترك والتضامن، أو نتحمل كلّ المعاناة والضيق.

****

*) دبلوماسي ألماني.